المقدمـــــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من قال له رب العـــزة: (لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)[1].

لم يكن البحث موضوع القراءات وأثرها في النحو الكوفي ترفاً علمياً، تدفع إليه قلة الموضوعات المقدمة للدراسة، ولكني رأيت في بحثي هذا أنـــه ضرورة دعت إليها حاجة المكتبة العربية إلى مثل هذه الدراسة، ومنذ زمـــن حظى النحو البصري بعديد من الدراسات، في حين أن النحـــو الكـــوفي لـــم يحصل إلا على بعض المحاولات التي لم تكتمل نسبة لندرة المصادر، وإيماناً مني بجدوى دراسته أقدمت عليه من غير تردد، وكان يحدوني الأمل فـــي أن أميط اللثام عن دراسة غمرها الزمن وقتاً طويلاً، حتى أظهر عهود أســـلافنا القيمة ومساهمتهم الكبيرة في ميدان اللغة والنحو وكافة فروع علم العربية.

وقد وصل إلينا النحو الكوفي من خلال بعض الملاحظات التي ترد في ثنايا البحوث دون أن يعطي كتاباً مستقلاً.

النحو الكوفي قليل المصادر ومعظم كتب أعلام الكوفيين لم تصل إلينا فمثلاً كتب الفراء أكثر من ثلاثين كتاباً لم يصلنا منها إلى يومنا هـــذا ســـوى أربعة كتب، وهذه تمثل أكبر مجموعة عن النحو الكوفي، أما كتـــب الأولـــين أمثال الرؤاسي والهراء لم يعثر على أي منها وأول كتاب وصلنا عن النحـــو الكوفي هو كتاب (معاني القرآن) للفراء، أما ما تلحن فيه العامة للكسائي قـــد ورد ذكره في بعض المصادر وصلته بأبواب النحو قليلة فواضح من عنوانه أنه يتعرض لمسائل تلحن فيها العامة، وهذه فكرة تعد متـــأخرة عـــن بدايـــة الدراسات النحوية.

ولقد ارتفعت في هذا العصر أصوات تدعو إلى تخليص القرآن الكريم ونصوصه وقراءاته من هذا الخلط الذي وقع فيه بعض النحاة، والتصدي لهم بقوة وعزيمة صادقة، وهم في هذا متبعون لا مبتدعون... من هؤلاء العلمـــاء

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١٩٥

الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، حيث تحدث عن منهج النحاة الطاعنين في القراءات قال: "هذه الحملة الآثمة استفتح بابها، وحمل لواءها نحاة البصرة المتقدمون ثم تابعهم غيرهم من اللغويين والمفسرين ومصنفي القراءات"(١).

عزمت الطالبة على مواصلة البحث في هذا الموضوع وكلي أمل أن أستوفي الجوانب الناقصة، والتي تبين لي أن أحداً لم يوفيها حقها من البحث والدراسة، قد يأتي بحث الدكتور مهدي المخزومي في مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ضمن إطار هذا البحث ولكن بحثه كان من الناحية التاريخية ولم يتعرض للموضوعات التي سأطرقها إلا لماماً، وإن كان البحث قد أفادني كثيراً في بعض الجوانب كذلك كتاب أبو زكريا الفراء للدكتور أحمد مكي الأنصاري وقد ركز فيه على شخصية الفراء أكثر من المسائل النحوية، وإن كان قد أفادني في كثير من جوانب هذا البحث.

موضوع الدراسة:

وبناء على ما تقدم فقد جاءت دراستي الموضوعية لهذا البحث بعنوان، أثر القراءات في النحو الكوفي، فقد رأيت إن من الإنصاف أن نذكر الآراء الصحيحة ذلك لأن العصبية المذهبية أضافت نوعاً من الغموض على آراء الكوفيين مما جعل بعض هذه الآراء منسوب بطريقة غير صحيحة، وهل يُعقل أن تعقد مائة وواحد وعشرون مسألة خلافية في النحو بين مذهبي البصرة والكوفة ولا يكون الحق في جانب الكوفيين إلا في سبع مسائل منها!! تلك إحدى القضايا الجديرة بالبحث ولم آخذ بحجة واهية أبني عليها أحكاماً معينة إلا بعد مراجعة نصوصها في مراجعها الأولى القديمة، ولم أتناسى الدراسات الحديثة، بل استعنت بها وإن كانت معالجتها في جلها تأخذ زوايا معينة ولا تنصب كلية على ذات الموضوع وبما أن موضوعي شامل الجزء الأكبر من القراءات وتأثيرها في النحو الكوفي فقد ساعدتني كتب القراءات على إغناء بحثي، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وجدت من القراء السبعة من ينكر بعض القراءات وكذلك فعل ابن مجاهد وهو شيخ الصنعة وممن سار

---

(١) الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، مطبعة السعادة، ط١، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م، ص١٩

في هذا الدرب من المفسرين ابن جرير الطبـــري. ولقـــد تصـــدى العلمـــاء المخلصون قديماً وحديثاً للرد على هؤلاء الطاعنين في القراءات المتـــواترة، ويأتي في مقدمتهم ابن الجزري حيث يقول:

"أَنّى يسعهم إنكار قراءة تواترت واستفاضت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نويس لا اعتماد عليهم.. حملوا على ما علموا مـــن القياســـات وظنوا أنهم أحاطوا بجميع لغات العرب أفصحها وفصيحها، حتى لـــو قيـــل لأحدهم شيء من القرآن على غير النحو الذي أنزله الله يوافق قياساً ظـــاهراً عنده لم يقرأ أحد بذلك لقطع له بالصحة، ولو أنه سئل عن قراءة لا يعرف لها قياساً لأنكرها ولقطع بشذوذها"(١).

أسئلة البحث:

أولاً: هل هنالك تأثير مباشر للقراءات القرآنية على النحو الكوفي؟ وما مدى انعكاس هذا التأثير؟

ثانياً: هل هنالك بعض الأسس والأصول التي ارتكـــز عليهـــا النحـــو الكوفي؟

ثالثاً: هل كان للبيئة والطبيعة الجغرافية تأثير سلبي على نحو المدرسة الكوفية؟

رابعاً: هل هنالك أسباب أدت لتأخر نشأة النحو الكوفي؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في أن القراءات لها أثر كبير ومهم في النحـــو الكوفي.

أهداف البحث:

تحاول هذه الدراسة بحث مشكلات النحو الكوفي وذلك بالآتي:

أولاً: تهدف هذه الدراسة إلى إيضاح تأخر نشأة النحو الكـــوفي نســـبة لبعض الظروف منها البيئية والطبيعية، وكان تأثير القـــراءات فـــي نحـــوهم إيجابياً.

---

(١) ابن الجزري، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، تحقيق عبد الحي الغرماوي، ط١، ١٩٧٧م، ص ٢٤١

ثانياً: تهدف هذه الدراسة إلى وضع مرجعٍ قرآني نحوي يقف من خلاله على نشأة النحو الكوفي، وموقف نحاة الكوفة منها.

المنهج المتبع في الدراسة:

اتبعت المنهج الوصفي ولقد وظفته لإعطاء خلفية عن القراءات وأثرها في النحو عند العلماء العرب القدامى والمحدثين ثم تطرقت لذكر الخلافات التي كانت بين المدرستين البصرية والكوفية وصولاً للنتائج التي صيغ من أجلها البحث.

الدراسات السابقة:

أما بالنسبة للدراسات السابقة، فقد عنى كثير من الباحثين بالدراسات القرآنية قديماً وحديثاً ومن هؤلاء محمد عبد الخالق عضيمة، ومهدي المخزومي وعبد العال سالم مكرم، والدكتور أحمد مكي الأنصاري ولقد استعنت بمؤلفاتهم فكانت مادة طيبة أثرت بحثي وأفادته كثيراً.

ومن أهم الكتب التي أفدت منها في مجال دراستي:

١. ابن مجاهد، السبعة في القراءات.
٢. مكي بن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات.
٣. مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو.
٤. الفراء، معاني القرآن.
٥. ابن الجزري، القراءات العشر.
٦. عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية.

مخطط البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يحتوي على مقدمة وأربعة فصول ونتائج وخاتمة وثلاثة ملاحق.

المقدمة: ذكر فيها تعريف عام بالبحث ودوافعه وأسباب اختياره، وأهميته والدراسات السابقة ومنهج البحث وخطته، وتقويم لبعض مصادر البحث وجاء ترتيب الخطة على النحو التالي:

التمهيد: تحدثت فيه عن القراءات وصلتها بالنحو وجاء الفصل الأول تحت عنوان: نحو المدرسة الكوفية؛ وشمل المباحث الآتية:

- المبحث الأول: النحو الكوفي النشأة والمؤثرات والخصائص.
- المبحث الثاني: نحاة الكوفة القراء.
- المبحث الثالث: مصادر الدراسة النحوية عند الكوفيين.

وبينت في الفصل الثاني أثر القراءات في نحو الكوفيين؛ وجعلته في ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: القراءات وسبق الكوفة في الإقراء.
- المبحث الثاني: نحاة الكوفة القراء وصلة القراءات بنحوهم.
- المبحث الثالث: موقف نحاة الكوفة من الاحتجاج بالقراءات.

الفصل الثالث خصصته لأسس التقعيد النحوي عند الكوفيين وكان في ثلاث مباحث:

- المبحث الأول: إخضاعهم النحو للقرآن.
- المبحث الثاني: موقف الكوفيين من السماع.
- المبحث الثالث: موقف الكوفيين من القياس.

الفصل الرابع تحدثت فيه عن الخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين.

دراسة تطبيقية على الآراء النحوية للكوفيين والقراءات التي ظهرت فيها آراؤهم.

- المبحث الأول: المرفوعات.
- المبحث الثاني: المنصوبات.
- المبحث الثالث: المجرورات.
- المبحث الرابع: المجزومات.

ومن ثم الخاتمة التي ذكرت فيها النتائج التي إليها انتهى البحث.

أما مصادر البحث، فكانت تتفق مع مجالاته، بمعنى أنها كانت شـــاملة لكتب النحو والقراءات وكتب التراجم والطبقات.

تمهيـــــد

لما كان حديثنا عن القراءات وصلتها بالنحو فلا بد لنا أن نلم إلمامـــة عاجلة بتعريف القراءات والنحو في اللغة واصطلاح العلماء.

فالقراءات جمع قراءة وهي مصدر قرأ وهي الجمع والضم قـــال أبـــو عبيدة: "سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها، وقوله تعالى: **(إنـــا علينـــا جمعه وقرآنه)**[١] أي جمعه وقراءته ومعنى قرأت القرآن: لفظت به مجموعاً أي ألقيته[٢] ورجل قارئ من قوم قراء وقرأة، وقارئين قيل تكرر في الحديث ذكر القراءة والاقتراء والقارئ، والقرآن، والأصل في هذه اللفظة (الجمـــع) وكل شيء جمعته فقد قرأته، وسمى القرآن كذلك لأنه جامع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعـــض. ويـــراد فهـــو قارئ[٣] وأقرأ غيره يقرئه إقراء[٤] ومنه قيل فلان المقرئ والقارئ والمتقرئ والقراء كله الناسك مثل حسان وجمال.

أما القراء من القراءة جمع قارئ والمقرئ هو (مـــن علـــم بهـــا أداء ورواها مشافهة)[٥] ولكن في اصطلاح العلماء: (مذهب يذهب إليه إمام من أئمـــة القراء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق[٦].

أما كلمة النحو في اللغة فلها معانٍ كثيرة منها:

النحو: إعراب الكلام العربي؛ والنحو القصد والطريق ويكون ظرفـــاً واسماً نحاه وينحاه نحو وانتحاه. ونحو العربية منه؛ إنما هو: انتحـــاء ســـمت كلام العرب من تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والإضافة النسب

---

(١) سورة القيامة، الآية ١٦، الصحاح، للجوهري، مادة (قرأ)

(٢) ابـــن منظـــور، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، ج١١، ص ٨٧، مادة قرأ

(٣) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، مطبعة المشهد الحسيني، مصر، ص ٥

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ص، مادة (قرأ)

(٥) إتحاف فضلاء البشر، ص ٥

(٦) ابن القطان، أبو علي الحسن بن القطان، مباحث في علوم القرآن، تحقيق محمد علي مكي، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، المطبعة المهدية، ط٤، ص ١٧٠

وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها في الفصاحة؛ أي نحوت نحواً كقولك قصدتُ قصداً.

والنحو في الاصطلاح: قواعد يعرف بها أحوال الكلمات العربية التي حصلت بتركيب بعضها مع بعض؛ من إعراب وبناء؛ وبمراعاة تلك الأصول يحفظ اللسان عن الخطأ في النطق ويعصم القلب عن الزلل في الكتابة والتحرير(١).

وبعد الاطلاع على المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمتي القراءات والنحو، يجدر بنا أن نقف على فكرة عامة عن القراءات ولما كانت القراءات هي أوثق مصدر في الوجود كان لزاماً على النحويين واللغويين أن يعدلوا قواعده، ويستقوها من منهج القرآن الكريم، فكان النحو في مقدمة علوم العربية التي شكوا فيها، وفي أصله فكان هذا سبباً في أن تمثل دراسات اللغة والنحو مكاناً خاصاً بين دراسات الأدب العربي ولا يفوتني في هذا المقام أن أذكر ما للقراءات من أثر عظيم ودور بارز في الدراسات النحوية على مر العصور(٢) كما يذكر ذلك عبد العال سالم مكرم في كتابه أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية فيقول(٣):

"شغلت القراءات أذهان النحاة منذ نشأة النحو، ذلك لأن النحاة الأوائل الذين نشأ النحو على أيديهم كانوا قراء، ولعل اهتمامهم بهذه القراءات وجههم إلى الدراسات النحوية ليلائموا بين القراءات والعربية، معتمدين على ما سمعوا ورووا من القراءة وما سمعوا ورووا من كلام العرب".

ثم يحصر ذلك في عدة نقاط وهي:

أولاً: "اختلاف البصريين والكوفيين في بعض المسائل بسبب القراءات.

ثانياً: ظهرت قراءات مشكلة أي القراءات التي ظاهرها مخالف للقواعد النحوية فاجتهد النحويون في تخريجها".

---

(١) أحمد الهاشمي، القواعد الأساسية في اللغة العربية حسب متن الألفية، ص ٦-٧، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت، د. ط، د . ت

(٢) د. عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، جامعة الكويت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، ج٣، ص ٤٥

(٣) نفس المصدر، ص ٤٥

ثالثاً: "القراءات في ضوء الأصول النحوية والآراء والتخريجات تقوي المذهب وتعضد الرأي".

رابعاً: "القراءات وتوجيهاتها كانت مجالاً خصباً للدراسات النحوية في كتب النحو من ذلك كتاب سيبويه ومعاني القرآن للفراء، بل ألفت كتب للتوجيهات خاصة من ذلك الحجة لأبي علي الفارسي، والحجة لابن خالويه والمحتسب لابن جني، والكشف عن وجوه القراءات لمكي بن أبي طالب"(١).

وبعد الاطلاع على ما تضمنته كلمتي القراءات والنحو فسوف أتحدث في الفصل القادم عن نشأة النحو الكوفي وما بينه وبين القراءات من صلة – والعلاقة بين القراءات والنحو– رغم تباعد نشأة العلمين مع عدم انفكاك إحداهما عن الآخر تبدو واضحة بوضوح أسبابها الرئيسة المتمثلة فيما طرأ على كلمات القرآن من لحن في قراءة البعض مما استدعى وضع النحو متمثلاً في نقطه وإعجامه وإعرابه ولما أوجب اقتباس اللغة من السماع ولما كان القرآن الكريم هو أوثق مصدر كان لزاماً على النحويين واللغويين أن يعدلوا قواعدهم؛ ويستقو من منهج القرآن الكريم.

---

(١) نفس المصدر، ص٤٧